من أحاديث الإذاعة :

الســـعادة ...*

للأستاذ علي الطنطاوي

كنت أقرأ في ترجمة (كانت) الفيلسوف الألماني الأشهر ، أنه كان لجاره ديك ، قد وضعه على السطح قبالة مكتبه ، فكلما عمد إلى شغله صاح الديك، فأزعجه عن عمله ، وقطع عليه فكره . فلما ضاق به بعث خادمه ليشتريه ويذبحه ويطعمه من لحمه ، ودعا إلى ذلك صديقاً له ، وقعدا ينتظران الغداء ، ويحدثه عن هذا الديك ، وما كان يلقى منه من ازعاج ، وما وجد بعده من لذة وراحة ، ففكر في أمان ، واشتغل في هدوء ، فلم يقلقه صوته ، ولم يزعجه صياحه ...

... ودخل الخادم بالطعام وقال معتذراً ، إن الجار أبى أن يبيع ديكه ، فاشترى غيره من السوق ، فانتبه (كانت) فإذا الديك لا يزال يصيح !

* * *

(*) حديث كتب لمحطة الشرق الأدنى ، فبعثته في مصر وأذاعته من يافا يومي (٧) و (٨) مايو ١٩٤٧ .

من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

« إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .

أكثر الناس لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، أمور من المحسات عرفوها بالممارسة ، والتعود ، وأدركوها بالتقلب في المعاش ، والتجربة . وهم في غفلة عن الحقائق الكبرى ، التي تتصل بالمبدأ والمنتهى والقوانين التي تسير الناس في الحياة ، والتي تقضي بين الحق والباطل والخير والشر ، وتفصل بين أمة مصلحة وأخرى مفسدة ، وجماعة يغلب فيها الحق ، وأخرى يسود فيها الباطل . وهم في غفلة عن الآخرة وما فيها من جزاء عادل ، وقصاص حق .

عبد الوهاب عزام

فكرت في هذا الفيلسوف العظيم فرأيته قد شقي بهذا الديك لأنه كان يصيح ، وسعد به وهو لا يزال يصيح ، ما تبدل الواقع ما تبدل إلا نفسه ، فنفسه هي التي أشقته لا الديك ، ونفسه هي التي أسعدته ، وقلت : مادامت السعادة في أيدينا فلماذا نطلبها من غيرنا ؟ ومادامت قريبة منا فلماذا نبعدها عنا ، إذ نمشي إليها من غير طريقها ونلجها من غير بابها ؟ إننا نريد أن نذبح (الديك) لنستريح من صوته ، ولو ذبحناه لوجدنا في مكانه مائة ديك ، لأن الأرض مملوءة بالديكة ، فلماذا لا نرفع الديكة من رؤوسنا إذا لم يمكن أن نرفعها من الأرض ؟ لماذا لا نسدّ آذاننا عنها إذا لم نقدر أن نسدّ أفواهها عنا ؟ لماذا لا نجعل أهواءنا وفق ما في الوجود إذا لم نستطع أن نجعل كل ما في الوجود وفق أهوائنا ؟

أنام في داري فلا توقظني عربات الشارع وهي تزلزل بسيرها الأرض ، ولا أصوات الباعة وهي ترعد في الجو ، ولا أبواق السيارات وهي تسمع الموتى ، وتوقظني همسة في جو الدار ضعيفة ، وخطوة على ثراها خفيفة . فإن نمت في الفندق لم يوقظني شيء وراء باب غرفتي . فإن كان نومي في القطار لم يزعجني عن منامي حديث جيراني إلى جنبي ، ولا صوت القطار وهو يهتز بي . فكيف احتملت هنا ما لم أكن أحتمله هناك ؟ وآلمني هناك ما لم يؤلمني هنا ؟

ذلك لأن الحس كالنور، إن أطلقته أضاء لك ما حولك فرأيت ما تحب وما تكره ، وإن حجبته حجب الأشياء عنك ، فانت لا تسمع أصوات الشارع مع أنها أشد وأقوى، وتسمع همس الدار وهو أضعف وأخفت، لأنك وجهت إلى هذا حسّك، وأدخلته نفسك فسمعته على خفوته كما ترى في الضياء صغائر الأشياء ، وأغفلت ذاك وأخرجته من نفسك ، فلم تسمعه على شدته ، وخفي عنك كما تختفي في الظلام عظائم الموجودات . فلماذا لا تصرف حسك عن كل مكروه ؟ إنه ليس كل ألم يدخل قلبك . ولكن ما أدخلته أنت برضاك ، وقبلته باختيارك ، كما يدخل الملك العدوّ قلعته بثغرة يتركها في سورها . فلماذا لا نقوي نفوسنا حتى نتخذ منها سوراً دون الآلام ؟

أيها السادة المستمعون :

إني أسمعكم تهامسون . تقولون : « فلسفة وأوهام ». نعم ،

إنها فلسفة ، ولكن ليست كل فلسفة هذياناً . وإنها أوهام ، ولكن الحياة كلها أوهام تزيد وتنقص ، ونسعد بها ونشقى ، أو شيء كالأوهام :

يحمل الرجلان المتكافئان في القوة الحمل الواحد ، فيشكو هذا ويتذمر فكأنه حمل حملين ، ويضحك هذا ويغني فكأنه ما حمل شيئاً ، ويمرض الرجلان المتعادلان في الجسم المرض الواحد فيتشاءم هذا ويخاف ، ويتصور الموت ، فيكون مع المرض على نفسه ، فلا ينجو منه ، ويصبر هذا ويتفاءل ويتخيل الصحة ، فتسرع إليه ويسرع إليها . ويحكم على الرجلين بالموت ، فيجزع هذا ويفزع فيموت ألف مرة من قبل الممات ، ويملك ذلك أمره ويحكم فكره ، فإذا لم تُشَجِّه من الموت حيلته ، لم يقتله قبل الموت وهمه ...

وهذا يبارك رجل الدم والحديد ، وعبقري الحرب والسلم ، لم يكن يصبر عن التدخين دقيقة واحدة ، وكان لا يفتأ يوقد الدخينة من الدخينة نهاره كله فإذا افتقدها خلَّ فكرُه ، وساء تدبيره . وكان يوماً في حرب فنظر فلم يجد معه إلا دخينة واحدة ولم يصل إلى غيرها ، فأخرها إلى اللحظة التي يشتد عليه فيها الضيق ويعظم الهم ، وبقي أسبوعاً كاملا من غير دخان ، سارياً عنه أملا بهذه الدخينة ، فلما رأى ذلك ترك التدخين ، وانصرف عنه ، لأنه أبى أن تكون سعادته مرهونة بلفافة تبغ واحدة ...

وهذا العلامة المؤرخ الشيخ الخضري ، أصيب في أواخر عمره بتوهم أن في أمعائه ثعباناً ، فراجع الأطباء ، وسأل الحكماء فكانوا يدارون الضحك حياء منه ، ويخبرونه أن الأمعاء قد يسكنها الدود ، ولكن لا تقطنها الثعابين . فلا يصدق .

حتى وصل إلى طبيب حاذق بالطب ، بصير بالنفسيات ، قد سمع بقصته ، فسقاه مسهلا وأدخله المستراح وكان قد وضع له فيه ثعباناً فلما رآه أشرق وجهه ، ونشط جسمه ، وأحسَّ العافية ونزل يقفز قفزاً ، وكان قد صمد متحاملا على نفسه يلهث إعياء ، ويئن ويتوجع ، ولم يمرض بعد ذلك أبداً .

ما شفى الشيخ لأن ثعباناً كان في بطنه ونزل ، بل لأن ثعباناً كان في رأسه وطار ، لأنه أيقظ قوى نفسه التي كانت نائمة ، وإن في النفس الإنسانية لقوى إذا عرفتم كيف تفيدون منها صنعت لكم العجائب .

تنام هذه القوى فيوقظها الخوف ويوقظها الفرح ؛ ألم يتفق لواحد منهم أن أصبح مريضاً ، خامل الجسد ، واهي العزم لا يستطيع أن ينقلب من جنب إلى جنب ، فرأى حيَّة تقبل عليه ، ولم يجد من يدفعها عنه ، فوثب من الفراش وثباً ، كأنه لم يكن المريض الواهن الجسم ؟ أو رجع إلى داره العصر وهو ساغب لاغب ، قد هدَّه الجوع والتعب ، لا يبتغي إلا كرسياً يطرح نفسه عليه ، فوجد برقية من حبيب له أنه قادم الساعة من سفره ، أو كتاباً مستعجلا من الوزير يدعوه إليه ليرقى درجته ، فأحسَّ الخفة والشبع ، وعدا عدواً إلى المحطة ، أو إلى مقر الوزير ؟

هذه القوى هي منبع السعادة تتفجر منها كما يتفجر الماء من الصخر نقياً عذباً ، فتتركونه وتستقون من الغدران الآسنة ، والسواقي المكرة .

أيها السادة والسيدات : إنكم أغنياء ولكنكم لا تعرفون مقدار الثروة التي تملكونها ، فترمونها زهداً فيها ، واحتقاراً لها .

يصاب أحدكم بصداع أو مغص ، أو بوجع الضرس ، فيرى الدنيا سوداء مظلمة ، فلماذا لم يرها لما كان صحيحاً بيضاء مشرقة ؟ ويحمى عن الطعام ويمنع منه ، فيشتهي لقمة الخبز ومضغة اللحم ، ويحسد من يأكلها ، فلماذا لم يعرف لها لذتها قبل المرض ؟

لماذا لا تعرفون النعم إلا عند فقدها ؟

لماذا يبكي الشيخ على شبابه ولا يضحك الشاب لصباه ؟

لماذا لا نرى السعادة إلا إذا ابتعدت عنا ، ولا نبصرها إلا غارقة في ظلام الماضي أو متشحة بضباب المستقبل ؟

كل يبكي ماضيه ، ويحن إليه ، فلماذا لا نفكر في الحاضر قبل أن يصير ماضياً ؟

أيها السادة والسيدات :

إنا نحسب الغنى بالمال وحده ، والمال وحده ؟ ألا تعرفون قصة الملك المريض الذي كان يؤتى بأطايب الطعام فلا يستطيع أن يأكل منها شيئاً ، فانظر من شباكه إلى البستاني وهو يأكل الخبز الأسمر بالزيتون الأسود ، يدفع اللقمة في فمه ويتناول الثانية بيده ، ويأخذ الثالثة بعينه ، فتمنى أن يجد مثل هذه الشهية ويكون بستانياً ؟

فلماذا لا تقدرون ثمن الصحة ؟ أما للصحة ثمن ؟

من يرضى منكم أن ينزل عن بصره ويأخذ مائة ألف دولار؟ من يبيع قطعة من أنفه بأموال عبود باشا ؟

أما تعرفون قصة الرجل الذى ضل فى الصحراء ، وكاد يهلك جوعاً وعطشاً ، لما رأى غدير ماء وإلى جنبه كيس من الجلد ، فشرب من الغدير ، وفتح الكيس يأمل أن يجد فيه تمراً أو خبزاً يابساً ، فلما رأى ما فيه ، ارتد يأساً ، وسقط إعياء . لقد رآه مملوءاً بالذهب !

وذاك الذى رأى مثل ليلة القدر ، فزعموا ، أنه سأل ربه أن يحول كل ما مسته يده ذهباً ، واستجيبت دعوته ، فلمس الحصى فصار ذهباً ، ومس الخشب فصار ذهباً ، فكاد يجن من فرحته ، ومشى إلى بيته ما تسمه الدنيا ، وعمد إلى طعامه ليأكل فمس الطعام فصار ذهباً ، وبقى جائعاً ، وأقبلت بنته تواسيه ، فعانقها فصارت ذهباً ... فقعد يبكى يسأل ربه أن يعيد إليه بنته وسفرته وأن يبعد عنه الذهب .

وروتشلد الذى دخل خزانة ماله الهائلة فانصفق عليه بابها فمات غريقاً فى بحر من الذهب .

يا سادة : لماذا تطلبون الذهب وأنتم تملكون ذهباً كثيراً ؟ أليس البصر من ذهب ، والصحة من ذهب ، والوقت من ذهب ؟ فلماذا لا تستفيد من أوقاتنا ؟ لماذا لا تعرف قيمة الحياة ؟

كافتنى المحطة بهذه الأحاديث الأربعة من شهر ، فما زلت أماطل بها ، والوقت يمر ، أيامه ساعات ، وساعاته دقائق ، لا أشعر بها ولا أنتفع منها ، فكأنها صناديق ضخمة خالية ، حتى إذا دنا الموعد ولم يبق إلا يوم واحد ، أقبلت على الوقت أنتفع به ، فكانت الدقيقة ساعة ، والساعة يوماً ، فكأنها الطلب الصغيرة المترعة جوهراً وتبراً ، واستفدت من كل لحظة حتى إنى لأكتب هذا الحديث والله ، فى محطة (باب اللوق) وأنا أنتظر القرام فى زحمة الناس وتدافع الركاب ، فكانت لحظة أبرك علىّ من تلك الأيام كلها ، وأسفت على أمثالها ؛ فلو أنى فكرت كلما وقفت أنتظر القرام بشىء أكتبه ، وأنا أقف كل يوم أكثر من ساعة متفرقة أجزاؤها ، لربحت شيئاً كثيراً . ولقد كان صديقنا الأستاذ الشيخ بهجة البيطار يتردد من سنوات بين دمشق وبيروت ، يعلم فى كلية المقاصد وثانوية البنات ، فكان يتسلى فى القطار بالنظر فى كتاب (قواعد التحديث) للامام القاسمى ، فكان من ذلك تصحيحاته وتعليقاته المطبوعة مع الكتاب ، والعلامة ابن عابدين كان يطالع دائماً ، حتى أنه إذا قام إلى الوضوء أو قعد للأكل أمر من يتلو عليه شيئاً من العلم فألف (الحاشية) . والسرخسى أملى وهو محبوس فى الجب ، كتابه المبسوط ، أجل كتب الفقه فى الدنيا ، وأنا أعجب ممن يشكو ضيق الوقت ، وهل يضيق الوقت إلا الغفلة أو الفوضى ؟ أنظروا كم يقرأ الطالب ليلة الامتحان ، تروا أنه لو قرأ مثله لا أقول كل ليلة ، بل كل أسبوع مرة لكان علامة الدنيا ، بل انظروا إلى هؤلاء الذين ألفوا مئات الكتب كابن الجوزى والطبرى والسيوطي والجاحظ ، بل خذوا كتاباً واحداً كنهاية الأرب ، أو لسان العرب ، وانظروا ، هل يستطيع واحد منكم أن يصبر على قراءته كله ونسخه مرة واحدة بخطه فضلا عن تأليف مثله من عنده ؟

والذهن البشرى ، أليس ثروة ؟ أماله ثمن ؟ فلماذا نشقى بالجنون ولا نسعد بالعقل ؟ لماذا لا يمكن للذهن أن يعمل ولو عمل لجاء بالمدهشات ؟ لا أذكر الفلاسفة والمخترعين . ولكن أذكركم بشىء قريب منكم ، سهل عليكم ، هو الحفظ ، إنكم تسمعون قصة البخارى لما امتحنوه بمائة حديث خلطوا متونها وأسنادها ، فأعاد المائة بخطئها وصوابها . والشافعى لما كتب مجلس مالك بريقه على كفه ، وأعاده من حفظه . والمعرى لما سمع أرمنيين يتحاسبان بلغتهما ، فلما استشهداه أعاد كلامهما وهو لا يفهمه . والأصمعى وحماد الراوية وما كانا يحفظان من الأخبار والأشعار . وأحمد وابن معين وما كانا يرويان من الأحاديث والآثار . والمئات من أمثال هؤلاء ... فتعجبون ، ولو فكرتم فى أنفسكم لرأيتم أنكم قادرون على مثل هذا ولكنكم لا تفعلون .

أنظروا كم يحفظ كل منكم من أسماء الناس والبلدان ، والصحف والمجلات ، والأغانى والنكات ، والمطاعم والمشارب ، وكم قصة يروى من قصص الناس والتاريخ ، وكم يشغل من ذهنه ما يمر به كل يوم من المقروءات والمرئيات والمسموعات فلو وضع مكان هذا الباطل علماً خالصاً ، لكان مثل هؤلاء الذين ذكرت .